مندليف الكيماوي

يأتي الشتاء فيكثر الموت بين الشيوخ. والغالب ان العلماء يعمّرون كثيراً فيموت كثيرون منهم في هذا الفصل فقد مات منهم الآن ثلاثة من اشهر علماء العصر مندليف الروسي وفوستر الانكليزي ومواسان الفرنسوي. وتقد الروس عالمين آخرين من كبار الكيماويين وهما بيلستين وبشكين ولكن ليس لهما الشهرة التي حازها مندليف. وقد ذكرنا طرفاً من ترجمته في المجلد الثالث عشر سنة ١٨٨٩ ولا بأس باعادته ثم الحاقه بما وقفنا عليه من وصف حالهِ بعد ذلك. قلنا حينئذٍ

"ان من ينظر الى اهالي اوربا واميركا وما هم فيهِ من الحاضرة في ميدان الصناعة والتجارة والثروة والعزّة لا يفرق بينهم وبين فرسان اشطوا صهوات الجياد واطلقوا لها الاعنة وغرضهم الكسب والفخار. والقادة لهؤلاء الفرسان افراد قلائل نرى نفراً منهم في المانيا ونفراً في فرنسا ونفراً في انكلترا ونفراً في اميركا ونفراً في غيرها من الممالك. وهؤلاء القوّاد العظام يختطّون مواقع القتال ويديرون حركات الجيوش بثاقب فكرهم وصائب رأيهم وهم ارباب الحضارة ومعززو دعائمها واذا افتقر قوّاد الجيوش ووزراء الممالك بما فقدوهُ من البلدان ومهدوهُ من العراقيب السياسيّة فللقادة العقول الفخر الاوّل بالتغلب على مصاعب الطبيعة وترقية الانسان جسداً وعقلاً

"ومندليف المترجَم هنا من هؤلاء القوّاد العظام فقد ولد بمدينة تبولسك بسيبيريا في السابع من فبراير سنة ١٨٣٤ وكان ابوهُ مديراً لمدرسة كبيرة في المدينة فكُفَّ بصرهُ لما كان ديمتري طفلاً فاضطرّ ان يستعفي من المدرسة وكان لهُ سبعة عشر ولداً ديمتري اصغرهم فقامت زوجتهُ لاعالتهم وكانت تفوق الرجال همّةً واقداماً فانشأت معملاً للزجاج في تلك المدينة وكانت تديرهُ بنفسها وتربح منهُ ما يكفي لقيام بعائلتها وتعليم اولادها

"فلبث ديمتري في مدرسة تبولسك واتمّ دروسهُ فيها وهو في السادسة عشرة من عمرهِ وحينئذٍ أُرسل الى مدرسة بطرسبرج وبرع في العلوم الطبيعية والّف وهو في المدرسة رسالة في المواد الكيماويّة المتماثلة تركيباً. ثم عيّن مدرساً لمدرسة سمفروبول في بلاد القرم ولما نشبت حرب القرم نقل الى مدرسة اودسا وبعد أن تقلّب في مناصب التعليم عين استاذاً للكيمياء في مدرسة بطرسبرج الجامعة وهو الآن استاذ شرف فيها

"ومؤلفاتهُ ومصنفاتهُ كثيرة جداً واكثرها في الكيمياء ونسبتها وتطبيقها على الصناعة

واشهر كتبهِ الانسكلوبيديا الكيماويَّة واليهِ ينسب تقدُّم روسيا في الصناعة وكتاب مبادىء الكيمياء وكتاب الكيمياء الالية وهما من اشهر الكتب المؤلفة في هذا الفن

"واشهر اكتشافاتهِ الكيماوية ما يسمَّى بالناموس الدوري . وبموجب هذا الناموس انبأ بوجود عناصر جديدة قبل ان كشفت واخبر عن خواصها الكيماوية وصفاتها الطبيعيَّة وهي في عالم الخفاء ثم لما كشفت وجدت كما انبأ عنها وهذا من اعظم مكتشفات العلوم الطبيعيَّة ويقال انهُ ما من رجل افاد العلوم الطبيعيَّة في سلطنة الروس اكثر من هذا الشهير"

ويزيد على ذلك ان كتابهُ في مبادىء الكيمياء لم ينسج على منوالهِ حتى الآن لانهُ جرى فيهِ مجرًى جديدًا في تحقيق القضايا الكيماوية وايضاحها ولذلك ترجم الى كثير من اللغات الاوربية ولا يزال الكيماويون يجدون اكبر لذة في مطالعتهِ

ولم يترك فرعًا من فروع الكيمياء الاَّ طرقهُ وبحث فيهِ بحث العالم المدقق مدة الثلاثين سنة التي قضاها في تعليم هذا العلم وهذا سبب شهرتهِ الواسعة كفيلسوف كيماوي ولكن اكثر شهرتهِ في الكيمياء الطبيعية بنوع عام وفي اكتشاف الناموس الدوري بنوع خاص فانهُ وجد ان بين العناصر الكيماوية نسبة محدودة كأنها صفوف مرتبط بعضها ببعض ارتباطًا حسابيًّا كحلقات سلسلة واحدة

قال الاستاذ تروب الذي نقلنا عنهُ هذه السطور ان مندليف كان طويل القامة مهيب الطلعة طويل الشعر ايضهُ تجد في كلامهِ من الدقة والظرف وفي معانيهِ من الحكمة والابتكار ما يريك انهُ رجل ممتاز بين الرجال موقَّر عزيز الجانب على ما فيهِ من الدعة الفطرية والجرأة العريكة . وكان من الاحرار المحبين لوطنهم المتحمسين الكلة بين تلامذتهم ولذلك لم يكن يحب الاستبداد راضين عنهُ . ولما تلا خطبة فراداي في الجمعية الكيماوية الملكية ببلاد الانكليز قُدِّم اليهِ كيس من الحرير عليهِ شعار روسيا وفيهِ النقود الذهبية التي تعطى لمتقدم تلك الخطبة فسرَّ بالكيس جدًّا ولاسيما لما علم انهُ من صنع احدى السيدات اللواتي كنَّ حاضرات حينئذٍ لسماع خطبتهِ ولكنهُ اخرج النقود منهُ وردَّها الى الجمعية قائلاً انهُ لا يقبل مالاً من جمعية شرَّفتهُ باختيارهِ لاكرام ذكرى فراداي في مكان قدَّستهُ اعمال فراداي

وكانت وفاتهُ في الثاني من فبراير وله من العمر ٧٣ سنة ولما بلغت وفاتهُ القيصر بعث بتلغراف الى زوجتهِ يقول فيهِ "انبي تعزيتي القلبية عن هذه الخسارة العظيمة التي اشاركك فيها . ان روسيا فقدت رجلاً من افضل ابنائها في شخص الاستاذ مندليف الذي لا يزول اسمهُ من ذاكرتنا"